الدين والعقل

محاضرة الاديب الفاضل القس عبد الله جرجي السرياني

وردتنا تحت هذا العنوان مقالة واسعة لم يسمح ضيق المكان باثباتها كلها فاقتطفنا منها ما يلي (المشرق)

اليك ايها القارئ اللبيب بعض البراهين التي تستند اليها حقيقة ما بين الدين والعقل من العلاقة والموافقة وذلك ردًّا على مزاعم بعض جهلة بلادنا الذين يدعون الكفر تمدّنًا فصغرت لتدنّيهم المزعوم حقائق الدين في اعينهم وجعلوا يعدّون التدين ضعفًا بل امرًا دون طور العقل ان لم نقل مناقضًا لهُ وواضعًا لسموّ شرفهِ

١ من المعلوم انَّ الانسان من طبعهِ وجوهرهِ دَيِّن وانَّ الدين هو غريزة فُطر عليها ابن آدم كما يظهر لنا ذلك جليًّا من ميل جميع الشعوب الى التدين منذ خلقة العالم الى يومنا هذا وإنْ جهل بعضهم حقيقة التدين فمالوا الى باطلهِ. فتوغلوا في خرافات فظيعة ومعتقدات فارغة. فاذا كان التدين غريزة طبيعيَّة في الانسان ينجم من ذلك ان الله هو الذي وضعها فيهِ فكيف امكن اذن لبارئ الخلق ان يجعل في طبيعتهم غريزة مناقضةً لعقلهم « وهو الحكيم القدوس الذي رتّب كلَّ شيء بمقدار وعدد ووزن » (حكمة ٧ : ٢١) فالعقل والدين اذن اخوان توأمان او هما اشبه بفرسي رهان

ثمَّ انَّ الغاية من التدين هي تقرُّب الانسان من الله والاقتران بهِ تعالى ولهذا ايضًا خُلق الانسان ووضع في العالم. فكيف اذن امكن لمبدع الكون ان يجعل في الانسان غريزةً تبعدهُ عنهُ. اذ ان ما يناقض العقل لا يقدم عليهِ الَّا من كان فاقد العقل جاهلًا يؤيد ذلك قول الكتاب المقدس وهو لا يستهي جاهلًا الَّا من ابتعد عن الصراط المستقيم اذ يقول سبحانهُ عزَّ وجلَّ: « قال الجاهل في قلبهِ ليس اله » (مز ٥٢ : ٢)

واذا افترضنا مع اصحاب الكفر ان الله لم يجعل في الانسان غريزة الدين بل انَّما الانسان قد اكتسبها في صغرهِ لضعف عقلهِ فأُجيب ان اعتراضهم هذا باطل اذ ان كثيرين كانوا في صغرهم كفرةً او اشرارًا فارعووا في كبرهم واهتدوا سواء السبيل والامثال في ذلك كثيرة تتجدَّد كل يوم. ثمَّ ان الذين اتَّخذوا الدين ديدنًا من صغرهم نشاهدهم كلَّما تقدَّموا في السنّ وازداد عقلهم قوَّةً ازدادوا هم ايضًا تديُّنًا وتمسُّكًا بعروة الدين الوثقى الذي تلقَّنوهُ في صغرهم. فلو كان الدين مناقضًا للعقل لكانوا نبذوهُ

عندما كمل عقلهم كما نراهم ينبذون نبذَ النواة عوائد الطفولية واخلاق الصبا الدالة على قلة العقل وهذا ما يؤيده كلام الرسول في رسالته الاولى الى اهل كورنتس (١٣ : ١١) : « اني لمَّا كنتُ طفلاً كنت انطق كالطفل وأعقل كالطفل وأفكر كالطفل فلمَّا صرتُ رجلاً ابطلتُ ما هو للطفل »

٢ انَّ الدين هو عبارة عن مجموع حقائق تقوم على علاقات موجودة بين الله والانسان . وهذه الحقائق والفرائض يجب ان تكون بالطبيعة مرتبة على ذات الله المعبود وذات الانسان العابد . ولمَّا كان الله روحاً والانسان روحاً وجسداً اقتضى ان يكون الدين مناسباً لكليهما اي يوجد فيه ما يلائم كون الله روحاً وما يلائم كون الانسان روحاً وجسداً وهذا الذي نراهُ في الدين . حقائقهُ تصرّح لنا عن ان الله روحٌ محض منزَّهٌ عن المادَّة والجسميَّة وفرائضهُ منها باطنة تتمّ بقوى النفس كالايمان والرجاء والمحبة ومنها ظاهرة تكمل باتفاق النفس والجسد كالسجود والرتب الكنسيَّة وسائر العبادات والمناسك الدينية . فيا لله ما احسن وما اجمل هذا النظام الذي يرفع شأن الانسان عوضاً من ان يحطَّ من شرفه وسموّ مقامه

٣ ولعلَّ جلالة حقائق الدين وقداسة فرائضه هي التي حملتك يا هذا على ان تنكرها وتزعم انها مناقضة لعقلك ولكن على رسلك يا هداك الله انَّ نفي حكمك تهوّرًا . فما يفوق ادراك العقل شيء وما يخالف العقل شيء آخر فوجود حقائق في الدين تفوق ادراك العقل امر لا يُنكر ولا بدَّ من ذلك في دين الهيّ كديننا . لان الدين كما قلنا عبارة عن مجموع حقائق وفرائض تقوم على علاقات موجودة بين الله والانسان ولمَّا كان كنهُ الله أوسع من كنه الانسان بما لا يُحدّ وجب ان تكون الحقائق المتعلقة بكنهه تعالى اوسع ايضاً من عقل الانسان بما لا نهاية لهُ ولذا يُضحي هذا العقل في عجز عن ادراك ما يتجاوز دائرة استطاعته كما يتسع ادخال جرم ما في أصغر منهُ

ولكن ناشدتك الله قل لي ماذا حكمت اذ سمعت اوَّل مرَّة عن اكتشاف التلغراف بدون سلك . لا ريب انَّ عقلك لم يستطع ان يحيط به علماً وربَّما عددتهُ إفكاً وتلفيقاً ومع ذلك فقد أيقنتَ الآن بحقيقته وان كنتَ غير فاهم كيفيَّة تركيبه وصنعه . وعليه ان كنت لا تفهم مع سعة عقلك اكتشاف انسان اوسع منك عقلاً فكيف تحاول ادراك حقائق الله الغير المتناهي حكمةً وعلماً ومعرفة وتتجاسر على

انكارها والكفران بها لقصور ادراكك اياها. ثمَّ اعلم ان انكارك حقائق الدين الازليَّة لا يمنع من ان تكون تلك الحقائق حقائق. كما انَّ عدم تصديقك اكتشاف التلغراف بدون سلك لم يمنع وجوده ولا يبطل حقيقتهُ

٤ واليك اخيرًا برهانًا مأخوذًا من نفس مناداتك بالتمدُّن والتهذُّب فمن فمك ادينك. فتقول اذن انهُ ينبغي لنا ان نتمدَّن ونتهذَّب وانَّا الشرقيين لفي تأخر وتقهقر وقد فاتتنا بقيَّة الشعوب تمدُّنًا وتهذُّبًا وما اشبه ذلك فقد صدقت بما نطقت واحسنت التكلُّم حتى الآن ولكن ما لي اراك من الجهة الاخرى تقوِّض اركان الدين بآرائك المذمومة وتحطّ من شأن ارباب كانَّ الدين هو المانع لاتمام رغائبك وكأنَّ ارباب هم الاعداء المقاومون لعزائمك مع ان الدين هو اساس كلّ تمدُّن وتهذّب ولولا ارباب لاندثر كلّ تهذّب وكلّ تمدُّن من العالم ولعلَّكَ انتَ قد اكتسبت ما لك من المعارف والآداب من ارباب الدين وسادتهِ بيد انك لسوء تصرُّفك الذي نهاك عنهُ ارباب الدين امسيتَ تطعن فيهم وتمزّق اعراضهم بانياب الثلب والقدح

وعليهِ فان كنت تفهم بالتمدُّن والتهذب العلوم والفنون التي تزيّن العقل فاحسن علم هو معرفة الله واحسن فنّ هو اتمام فرائض الدين وبدون هذين الامرين يكون تمدُّنك ناقصًا بل ولا يسمَّى تمدّنًا. وان كنت تفهم بالتمدُّن والتهذُّب رياضة اخلاق النفس وحسن تدبير قواها وخاصياتها وشعائرها (وهذا هو معنى التمدّن الحقيقي) فلا يتمّ ذلك الَّا بواسطة الدين الذي ينهى الانسان عن المنكرات ويسهّلهُ كيفيَّة اجتنابها ويخرّجهُ شيئًا فشيئًا بقداسة مبادئهِ وجلالة فرائضهِ في الشمائل الحميدة والفضائل المجيدة كاملًا متمّمًا من كل جهة. وهذا ما يسلّم بهِ كل من لهُ بعض المام في تواريخ الامم القديمة التي لم يشرق عليها نور الانجيل والشعوب التي تنوَّرت بهذا النور الالهي فشتَّان بين آداب اولائك وآداب هؤلاء. وهيهات بين خرافات الاولين واعتقادات الآخرين فهل من الممكن اذن ان يكون الدين منافيًا للعقل وهو ركن كلّ تمدُّن وكل تهذُّب حقيقي

ان الانسان كلما زادت ثروتهُ وعظمت شوكتهُ وتفاقمت سفاهتهُ ووقاحتهُ كان اليوم في اعين الجهلة عظيمًا شريفًا موقَّرًا لهُ تخضع الرقاب صاغرةً. ولكن الامر بخلاف ذلك في أعين الحقّ لان الشرف الحقيقي لا يقوم الَّا بالدين ولا يكون للانسان فضل

على شبيهِهِ الّا على قدر تدنيهِ وتزلّفهِ من الله لان كلّ انسان يقدر ان يرتكب الشرور ويأتيها فليس اذن في فعلها فخر او شطارة فضلاً عن انهُ لا يقدم عليها الّا من كان نذلاً. ولكن ليس الامر كذلك في المبرّات والصالحات فانها تستقضي في صانعها زيادة عقل وشرف نفس وعظم شهامة ولذا كان صانعها فقط مستحقّاً ثناء الجميع وكاماتهم

ليس من يقطعُ طرقاً بطلاً انّما من يتقي الله البطل

فينجم ممّا تقدّم ان الدين ليس بضادّ للعقل كما يزعم المتظاهرون بالعقل والحكمة بل انما هو موافقٌ لهُ كل الموافقة بل مهذّبًا لهُ كما لسائر قوى النفس ويحسن ان نختم مقالتنا هذه بابيات ابي العتاهية:

حتى متى ذو التيهِ في تيههِ أصلحهُ الله وعافاهُ
يتيهُ اهلُ التيهِ من جهلهم وهم يموتون وان تاهوا
من طلب العزّ ليبقى لهُ فان عزّ المرء تقواهُ

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع لما سبق)

١٥ افقا

كرّرنا مرارًا اسم افقا في فصولنا السابقة على اننا لم نخصها بعدُ بالذكر. فرأينا ان نفرد لها بابًا خاصًّا لتفيد قراءتنا ما بلغنا عن امرها

قلنا ان وادي نهر ابراهيم كان يُعدّ في القرون الخالية كارض مقدّسة تعبّد فيها الفينيقيّون لتموز (ادونيس) فاقاموا لهُ المزارات والابنية الدينيّة يحجّون اليها ويتبركون بها. وقد امتاز بين هذه المعابد هيكل افقا الشهير جعلوهُ عند رأس نهر ابرهيم في موقع يفوق بحسنهِ جميع مناظر لبنان ويأخذ بالابصار لحسنهِ الفتّان هكذا وصفهُ رينان في كتابهِ الموسوم ببعثة فينيقية وبيّنّاهُ في مقالتنا عن جبال الألب ولبنان (المشرق ١: ٧٢٢)

يشتقُّ العلماء اسمَ أفقا من السريانيّة أفقا اصلها أبعدَ او نفقا مخرج